الحياة الإنسانية في الأشعار الجاهلية

د. عبد الغني زيتوني

لا ريب لدينا في أن الشعراء الجاهليين كانوا أكثر الأفراد حينذاك شعوراً وإحساساً بالزمن، كما كانوا أكثر قدرة على التعبير الصادق عن رؤيتهم الحقيقية للحياة، ولما يبعثه الزمن الضيّق في نفوسهم من أحاسيس وانفعالات، منطلقين، في ذلك كلّه من إدراكهم للظروف المعيشية التي تحيط بهم، وتُلقي بظلالها على مجرى حياتهم، ومتأثرين بنظرة المجتمع عامة تجاه الزمن؛ ومن هنا استطاعوا أن يعكسوا أيضًا حالة الإنسان العربي تجاه الزمن ومراحل العمر. وسيبدو لنا ذلك جليا في حديثهم عن الشباب، والمشيب، وفي رؤيتهم لغاية الحياة التي كانوا يطمحون إليها.

١ ـ الشباب :

لعلنا لا نجانب الحق إذا قلنا، مستندين في ذلك إلى نصوص شعرية لاحقة : إنَّ إحساس الإنسان العربي المفرط بالزمن، في أكثر الأحيان، وشعورَه الشديد بأنه مقيَّد به؛ ومن ثَمَّ قناعته بأنه لا حيلة له في التخلص من النهاية الحتمية المتمثلة في الموت، كل ذلك جعله يرى في الشباب ذروة الحياة؛ ففيه تتفجَّر قوى الجسد، وتتأجَّج المشاعر والأحاسيس، ويمور الجسم كلُّه بعنفوان الفتوَّة وحيويتها.

وقد زاد في أهمية الشباب لدى الفرد الجاهلي، أن البيئة التي يعيش فيها، وظروف المعيشة التي تحيط به، والحياة القبلية التي يحياها بغزواتها وغاراتها، تطلبت منه قوة جسدية لمواجهتها والتغلب عليها، كي يتمكن من الحفاظ على بقائه واستمرار وجوده، فضلاً عن أنه كان يجد في الشباب، غالبا، مجالاً لتحقيق رغائبه في الحياة، وقدرةً على تنفيذ كثير من آماله وأمانيه.

وبذلك هيأ الشبابُ للفرد القوةَ لخوض الحروب، ومقاتلة العدو، والصبر على شدائد الحياة في البادية، كما هيأ له أسباب الفتوّة القادرة على ضروب اللهو، وشتى متع الحياة. وربما كان هذان الأمران منطلَقَ الأعشى في تصويره للشباب تارة بالرُّمح القويم، ذي السِّنان الحادّ اللامع، الذي لا يُشكُّ في قدرته على اختراق الأجسام والنفاذ فيها. وتصويره تارةً ثانية بإناء الذهب الذي جهد صانعه في صياغته، فاكتمل بهاءً ورونقًا، وغدا وسيلةً ممتعةً إلى نَهْلِ الملذَّات(١):

بينما المَرْءُ كـالـرُّوَيْنِيِّ ذي الجُبَّــ ـــةِ سَـــوَّاهُ مُصْلِحُ التَّثْقِيفِ(٢)
أو إنـاءِ النُّضَارِ لا حَمَــهُ القَيْــ ـــنُ ودارَى صُـدُوعَـهُ بـالكَتِيفِ(٣)

رَدَّه دهــرُهُ المُضَــلَّلُ حتَّــى عـادَ من بعـدِ مشْيِـه للـدَّلِيفِ(٤)

ويمكننا أن نستوحي من رؤية الشعراء للشباب عامة أنهم كانوا يعدُّونه خلاصة العمر وزَهوهُ؛ فهم يدأبون دائما في إيراد صور حافلة بمسراته وأفراحه،

سواء أكانوا في مرحلة الفتوة أم كانوا في مرحلة تالية لها. ففي المرحلة الأولى نجدهم يفخرون بما يتمتعون به من قوة كبيرة، تجعلهم فرسانًا أشداء في المعارك ومجابهة الأخطار، ويتباهون بما يمارسون في حياتهم من ملذات، تشبع أحاسيسهم المتوثبة. وفي المرحلة الثانية نجدهم يمتلئون حسرة وألمًا على مامضى من عهد اللذائذ والمسرات، ويكون ديدنهم حينذاك أن يسترجعوا في مخيلاتهم صور الشباب الآفل، والنعيم الزائل.

ـ أولا: عهد الفتوة والشباب:

إنَّ من يبحث عن صورة الإنسان في الشعر الجاهلي لا بد أن يلحظ أمرًا ذا دلالة مهمة على موقف الفرد من الحياة، ومن الأسباب التي تربطه بالبيئة والمجتمع، والتي في مقدمتها القوة، هذا الأمر هو عدم اهتمام الشاعر بالحديث عن طفولته المبكرة؛ إذ لا نكاد نجد نصًّا شعريا يصوّر فيه الشاعر نفسه طفلا، يرتع ويلعب مع لداته وأقرانه، وينعم برعاية الوالدين وحنانهما، وإنما يطالعنا مباشرة، لدى حديثه الذاتي، شابًّا يافعًا، وفتى قويًّا، وكأنه بذلك يريد أن يوحي إلينا أن عمره الحقيقي يبدأ بسن الشباب، لا بزمن الولادة.

وربما كان سبب عزوف الشاعر عن ذكر طفولته يرجع إلى أنه لا يريد أن يصف نفسه إبَّان ضعفها وعدم قدرتها على الاعتماد على ذاتها، في عالم يتطلب القوة والمقدرة في كلِّ منحى من مناحيه. كما يُخيَّل إلينا أن ثمة سببًا آخر أيضًا، في غياب مرحلة الطفولة من وصف الشاعر لحياته، وهو أن جُلَّ فخره بنفسه إنما كان ينصبُّ على مظاهر الشدة والقوة والبأس لديه من جهة، وينصبُّ كذلك على مباهج الحياة، وفي طليعتها شرب الخمر واللهو مع النساء، من جهة ثانية، ومن طبيعة الأمور ألا يتحقَّق له ذلك في الطفولة والصغر، فكان قمينًا به أن يَعُدَّ فتوّته منطلقًا لفخره، ويهمل نشأته الأولى التي تكاد ينعدم فيها كلُّ ما يبعث على الفخر والمباهاة.

وينبغي أن يكون بيّنًا لنا أن لفظ الفتى حين يرد في الشعر يدلُّ على الشباب غالبًا، وقد تُضاف إليه معانٍ خلقية تقترن به، وفي مقدمتها الشجاعة والكرم، وهذا ما ألمح إليه علماء اللغة في أثناء حديثهم عن هذا اللفظ(٥).

وانطلاقا من المفهوم السابق للشباب والفتوة نجد طرفة بن العبد يفخر بنفسه، فهو الفتى القوي الذي يلبِّي النداء في الملمات، ويبادر إلى غوث الآخرين ومعونتهم، وهو الفتى الذي يجمع بين صواب الرأي في المشورة، وحسن المنادمة في الشراب(٦):

إذَا القومُ قالوا: مَنْ فَتًى خِلْتُ أنَّني … عُنيتُ فلم أكسل ولم أَتبلَّدِ
ولستُ بحلَّالِ التِّلاعِ مخافةً … ولكنْ متى يَسْتَرْفِدِ القومُ أَرْفِدِ
فإنْ تَبْغِنِي في حَلْقَةِ القومِ تَلْقَني … وإنْ تَقْتَنِصْنِي في الحوانيتِ تَصْطَدِ

وعهد الشباب لدى زهير بن مسعود الضَّبِّيِّ حافلٌ بمباهج الفتوة، ومسرات الحياة التي تبعثها قوة الصبا وعنفوانه، ومقترن في نفسه بمعاقرة الدّنان، ومقارعة الأبطال، ومغازلة الغانيات، والقدرة على تفريج الهموم وإزالة الأحزان(٧):

فَلَرُبَّ فتيانٍ صَبَحْتُهُمُ … من عاتقٍ صَهْباءَ في الخِرْسِ(٨)
عانيَّةٍ تُصْبي الحليمَ إذا … دارتْ أكفُّ القومِ بالكأسِ(٩)
وَمناجدٍ بطلٍ دَبَبْتُ لهُ … تحت الغُبارِ بطَعْنَةٍ خَلْسِ(١٠)
وكواعبٍ هِيْفٍ مُخَصَّرَةِ الْـ … ـحُورِ نواعمَ قد لَهوتُ بها
أبْدانٍ من بيضٍ ومِنِ لُعْسِ(١١) … وشَفَيتُ من لذّاتِها نَفْسِي
وجسيمِ هَمٍّ قد رَحلْتُ لهُ … حتى تَثُوبَ بَلِيَّةٌ عَنْسِي(١٢)
ففرَّجْتُ هَمِّي بالعزيمة إنَّ العَـ … ـزمَ يُفَرِّجُ غُمَّةَ اللَّبْسِ

إنّ أهم مظاهر الفتوة والشباب التي تبرز في الشعر، والتي تناولها الشعراء مادة لوصف تلك المرحلة من حياتهم، هي الشجاعة والخمر والمرأة. ويتفاوت الشعراء في تفصيل تلك المظاهر، أو الإلحاح على بعضها دون بعضها الآخر، بَيْد أنَّ معظمهم يتفوق على أنها تتمثّل في صور تعكس مشاهد حيويَّة من عمر الإنسان، وتعبّر عن عهد الفتوة، وقلّما وجدناها تعبّر عن غير هذا العهد.

وقد لَخَّص لنا سُلْمِيُّ بن عُوَيَّة تلك المظاهر جميعا في هذه اللوحة الشعرية البديعة(١٣):

لا يَبْعَدَنْ عَهْدُ الشَّبابِ ولا   لَذَّاتِهِ ونباتِهِ النَّضِرِ
والمُرشِقَاتُ من الخدود كإيْماضِ الغَمامِ صواحبِ القَطْرِ(١٤)
وطِرادُ خَيْلٍ مثلها التقتا   لِحَفِيظَةٍ، ومقاعدُ الخَمْرِ(١٥)

وكان عَلْقَمَة بن عَبدَة قد صور لنا في شعره لذات الشباب تُنال من مجالس الشرب، وغناء القيان، فضلاً عن خوض المعارك ومقارعة الأقران(١٦). وألَحَّ أوس بن حَجر في حديثه عن فتوته، في بعض شعره، على اللهو بالمرأة الآنسة العروب، التي تفعل في نفس الفتى فعل الخمرة الصهباء المعتّقة(١٧). وانتهى حب الأعشى للراح، ومعاقرة الدنان إلى أن عَدَّها أقصى لذائذه في عهد الشباب، ولا سيما إذا كان ندماؤه فيها فتية كسيوف الهند عنفوانًا وقوة(١٨).

ولم يقتصر عمرو بن قِعَاس على مظاهر الفتوة السابقة، وإنما أضاف إليها مظاهر أخرى، تتضمن خُيَلاءَ الشباب وكبرياءه وسخاءه. وذلك كلُّه نجده لديه في هذه اللوحة الشعرية، التي قلَّ أن نرى نظيرًا لها في التعبير عن رؤية الإنسان العربي لتدفق الشباب وحيويته وتوثّبه وزهوه(١٩):

أَلَا بَكَرَ العواذِلُ واستُميتُ   وهل أنا خالدٌ إمَّا صحَوْتُ(٢٠)
إذا ما فاتني لَحْمٌ غريضٌ   قطعتُ ذِراعَ بَكري فاشْتَوَيْتُ

وكنتُ إذا أرى زقًّا مريضًا   يُناحُ على جنازتهِ بَكَيْتُ (٢١)
أُرَجِّلُ لِمَّتِي وأَجُرُّ ثوبي   وتَحمِلُ شِكَّتي أُفْقُ كُمَيْتُ (٢٢)
وأَمشِي في ديارِ بني غُطَيْفٍ   إذَا ما ساءني أمرٌ أبَيْتُ
وسوداءِ المحاجِرِ إلْفِ صَخْرٍ   تلاحظني التَّطَلُّعَ قد رَمَيْتُ (٢٣)
وتامُورٍ هَرَقْتُ وليس خمرًا   وحَبَّةِ غير طاحنةٍ قَضَيْتُ (٢٤)
ولَحْمٍ لم يَذُقْهُ الناسُ قبلي   أكلت على خلاءٍ وانتقيْتُ (٢٥)
وَبَرْكٍ قد أَثَرْتُ بِمَشْرَفِيِّ   إذَا ما زَلَّ عن عُقْرٍ رَمَيْتُ
متَى ما يأتِنِي يومي تَجِدْنِي   شُفِيتُ من اللَّذاذةِ واشْتَفَيْتُ (٢٦)

وكثرة حديث الشعراء عن متع الفتوة ومباهجها لا تعني أنهم كانوا يشيدون بالفرد الذي ينكبُّ على الملذات انكبابًا تامًّا، ويتفرّغ دائما لمجالس الشرب ومغازلة الحسان، غير آبهٍ بقضايا قومه، وشئون قبيلته، ولا ملتفت إلى السعي لبلوغ منزلة السادة والنبلاء والأشراف، فهذا الفرد يكون شأنه شأن طرفة بن العبد حين أدمن شرب الخمرة، وجعلها همَّه الأكبر، وغايته القصوى، منفقًا في سبيلها كلَّ ما يملك من مال، فكانت عاقبته أن نبذته القبيلة، وأهملته إهمالاً كاملاً(٢٧):

ومـا زالَ تَشْرابِي الخُمورَ ولَذَّتِي   وبَيْعي وإنفاقي طَرِيفي وَمُتْلَدِي
إلى أن تحامَتْني العشيرةُ كلُّها   وأُفْرِدْتُ إفرادَ البعيرِ المُعَبَّدِ

وأغلب الظن أن الشباب الحق، في رأي الشاعر الجاهلي، هو الذي يجمع بين تحمّل المسئولية القبلية أو الذاتية، وبين الانطلاق في ملاعب الصّبا، والجري وراء الملذات. وهذا ما وجده الأعشى متحققًا في إياس بن قَبِيصَة،

حين قارن صورتَه الحيويَّة المُتوثِّبة، في مجالي الشجاعة واللهو، بصورة العاجز الواهن الذي فقد الشباب، ففقد به العزيمة والقوة، وأضحى يؤثر الراحة والنوم في البيت على نهب المتع وخوض المعامع والحروب:

أخو النَّجَدَاتِ لا يكبُو لضُرٍّ ... ولا مَرَحٌ إذا ما الخيرُ داما
له يومان: يومُ لِعابِ خَوْدٍ ... ويومٌ يَسْتَمِي القحَمَ العِظاما(٢٩)
إذا ما عاجِزٌ رَثَّتْ قُواهُ ... رأى وَطْء الفراشِ له فناما
كفاهُ الحربَ، إذ لَقِحَتْ، إياسٌ ... فأعلى عن نمارِقِهِ فقاما(٣٠)
إذا ما سارَ نحو بلادِ قوم ... أزارهُمُ المنيَّةَ والحِماما
كصدرِ السَّيْفِ أخلصَهُ صِقَالٌ ... إذا ما هُزَّ مشهوراً حُساما

وعلى هذا فإن عهد الفتوة والشباب، كما صوره لنا الشعر، كان فسحة العمر لدى الإنسان العربي، نهل فيها فنون الملذات، وارتوى من معينها رحيق الصِّبا، مختالا بفروسيته وشجاعته، ومعتدًّا بقوته ومقدرته، وقد عَدَّ هذا العهدَ زهرةَ عمره وذروةَ حياته. ومن هنا يمكننا القول إن الشباب هو العهد الوحيد من العمر الذي كان فيه الشاعر الجاهلي راضيًا عن الزمن، قانعا به، من غير سخط ولا تذمّر في أكثر أحيانه ومعظم حالاته.

ثانيا، بكاء الشباب:

لا ريب في أن الأهمية الكبيرة للشباب لدى الإنسان العربي، كما برزت جلية من الأشعار السالفة، كانت غالبا تبعث في نفسه الحسرة والأسى والحزن، عند شعوره بتسرب الشباب وانقضاء عهد الفتوة. فلم يكن مستغربا بعد ذلك أن يعبّر في شعره عما اختلج في نفسه من مشاعر، وما أحدث فيها ألم الفقد ومرارة الفراق.

هذا ما كان من شأن عدي بن زيد فيما أبداه من أسًى عميق ولوعةٍ حرَّى لفراقه الشباب؛ ذلك الذي غذَّ السير، وأسرع بالرحيل، غير مبالٍ بجزع الشاعر وبكائه؛ ليقينه بأنه فراق لا لقاء بعده، ورحيل لا أوبة له(٣١):

بان الشبابُ فما له مَرْدُودُ   وعليَّ من سِمَةِ الكبير شُهودُ
شيبٌ برأسي واضحٌ أُعْقِبْتُهُ   من بعدِ آخرَ بانَ وَهْوَ حَميدُ
وأرى سوادَ الرأسِ يُنْقِصُهُ البِلَى   والشَّيْبُ عن طولِ الحياةِ يزيدُ
ولقد بكيتُ على الشبابِ لَوَ انَّهُ   كان البكاءُ به عليَّ يعودُ
ليس الشبابُ وإنْ جزعتَ براجعٍ   أبدًا، وليس له عليك مُعيدُ

وشبيه بهذا ما كان من تلهف عمرو بن قميئة على ضياع أيام شبابه الآفلة؛ إذ أصابه بفقدها أمر عظيم وخطب جلل، يتمثلان في ذهاب صحة البدن، ونضارة الوجه، وطيب العيش، وقوة الروح، فيا حسرة ما بعدها حسرة، ويا لوعة تزداد حرقة كلّما عَنَّ ذكر الصِّبا على البال، وخَطَرَ عهد الفتوة في الخيال(٣٢):

يا لَهْفَ نفسي على الشَّبابِ، ولم   أَفْقِدْ به، إذْ فَقَدْتُهُ، أَمَمَا(٣٣)
قد كنتُ في مَيْعَةٍ أُسَرُّ بها   أمنعُ ضَيْمِي وأُهْبِطُ العُصُما(٣٤)
وأَسحبُ الرَّيْطَ والبرودَ إلى   أدنى تِجاري وأَنْفُضُ اللِّمَمَا(٣٥)

وإذا كانت مظاهر الشباب ومتعه التي تُجلّى في الشجاعة والخمرة والمرأة باعثًا لفخر الشاعر بنفسه، فإن تلك المظاهر نفسها تدفعه إلى الحسرة والأسى، وتزيد من حزنه على انحسار الشباب الذي كان يوفرها له، ويجعل لذاتها أقرب مأخذًا، وأيسر منالاً.

وهذا ماكانت عليه حال أبي كبير الهُذَلِيّ حين رحل عنه الشباب، ولم يتبقّ منه

إلاَّ ذكرى لهوه مع النساء الغواني الفاتنات، وشجاعته في قيادة الفرسان واختراق صفوف الأعداء؛ وقد عبَّر عن حاله هذه في قوله، مخاطبا ابنته زُهَيْرَة(٣٦):

أَزُهيْرَ هل عن شَيْبَةٍ من مَعْدَلِ ... أم لا سبيلَ إلى الشَّباب الأوَّلِ؟
أم لا سبيلَ إلى الشبابِ، وذكرُهُ ... أشهى إليَّ من الرَّحيقِ السَلْسَلِ
ذهب الشبابُ وفات منِّي مامضى ... ونضا، زُهَيْرَ، كَرِيهَتي وتَبطُّلِي
وصَحَوْتُ عن ذكر الغواني وانتهى ... عُمُرِي وأُنكرْتُ الغَداةَ تَقَتُّلِي
أَزُهيْرَ إنْ يَشِبِ القَذَالُ فإنَّني ... رُبَ هَيْضَلٍ مرسٍ لَفَفْتُ بِهَيْضَلِ(٣٧)
فلَفَفْتُ بينهمُ لغيْرِ هَوادةٍ ... إلاَّ لسَفْكٍ للدِّمَاءِ مُحَلَّلِ(٣٨)
حتَّى رأيتُ دماءَهم تغشاهُمُ ... ويُفَلُّ سيفٌ بينهم لم يُسْلَلِ(٣٩)

واقتنص الأسود بن يَعْفُر صورة بارعة للشباب حي جعله ثوبًا جديدًا، يرتديه الإنسان مدة من الزمن، ثم سرعان ما يتمزق إلى قطع متفرقة، وذلك عندما تلوح نُذُر الشيب في الرأس، ويدبُّ الوهن في البدن، وتكون النتيجة فقدان ضروب اللهو، وفي مقدمتها مغازلة الفاتنات الحسان اللواتي من دأبهن الاحتفال بالشباب، والإزورار عمَّن اشتعل رأسه شيبًا وداهمه الكبر(٤٠):

لَهَوْتُ بسِربالِ الشَّبابِ ملاَوةً ... فأَصبحَ سِرْبَالُ الشَّباب شَبارِقَا(٤١)
فأصبحَ بَيْضاتُ الخُدُور قد اجتَوَتْ ... لِداتي وشِمْنَ الناشئِينَ الغَرانِقَا(٤٢)

وشكا سلامة بن جَنْدل شكوى حارة من الانقضاء السريع لشبابه، وغدت ذكراه الآفلة في ذهنه مقترنة بالأمجاد السامية، والأفعال الحميدة، واللذائذ

الممتعة، فقد امتلأت تلك المرحلة نشاطًا وحيوية، إذْ إنَّ قسمًا منها كان يُقضى في مجالي الجد واللهو، وقسما آخر كان يُستغرق في المعارك والحروب(٤٣):

أودَى الشَّبابُ حميدًا ذو التعاجيب   أَوْدَى وذلك شأْوٌ غيرُ مَطْلُوبِ
ولَّى حثيثًا وهذا الشَّيبُ يطلبُهُ   لو كان يُدرِكُهُ رَكْضُ اليَعَاقِيبِ(٤٤)
أودَى الشَّبابُ الذي مَجْدٌ عواقِبُهُ   فيه نلَذُّ ولا لَذَّاتِ للشَّيبِ
يومانِ: يومُ مقاماتٍ وأَنْدِيَةٍ   ويومُ سيرٍ إلى الأعداءِ تأْوِيبِ(٤٥)

وعلى ذلك فإنَّ الشعراء، في موقفهم من الحياة، كانوا يرون في الشباب زمنًا من العمر، تتحقق لهم فيه ممارسة فعلية لرغبائبهم السائدة في مواقع الحياة القبلية، متمثلة حينًا في الشجاعة وبعض القيم الخلقية الأخرى، وحينًا آخر في نهل المتع والارتواء من اللذائذ المتاحة حينذاك.

ولم يكن بدعًا منهم بعد ذلك أن يبكوا ذلك الزمن، ويعدّوه، مهما طال، أمدًا قصيرًا، مرَّ بهم سريعًا، ورحل عنهم رحيلاً أبديًا. وكان معظمهم ينطلق في نظرته إلى الشباب من الواقع الحقيقي الذي عاشه، ومن التجربة الشخصية التي قام بها هو نفسه، ولذلك جاءت أشعار هؤلاء، كشأنها في أكثر الموضوعات الأخرى، مستندة إلى المشاهدة الحسية، وبعيدة، في الوقت نفسه، عن الإغراق في تزويق الخيال وتحليقاته، وسنجد أن الأمر نفسه ينطبق على موقفهم من الشيخوخة ورؤيتهم لها.

٢ ـ المشيب والشيخوخة:

بعد أن بيَّن لنا الشعر موقف الإنسان العربي من الشباب الذي كان يعدّه حِلة القوة ونعيم العمر، فإننا لا نعجب أن نجده في مرحلة المشيب والشيخوخة يتخذ

موقفًا آخر، يختلف عن الموقف الأول ويناقضه.

فإذا كنا قد رأيناه في عهد الفتوة يمتلئ بهجة وقوة وعنفوانًا، ويندفع إلى العبّ من فنون الملذّات، مفتخرًا بذلك أشدَّ الفخر، ومزهوًّا به أعظم الزهو، فإن الشعر يظهره لنا في هذا العهد أقرب إلى الاكتئاب والأسى منه إلى الفرح والأمل، وأدنى إلى الضعف والعجز منه إلى القوة والاقتدار، غير متبق له إلاّ ذكريات الشباب الغابر يسترجعها، ويكون ديدنه فيها الحديث عمّا حقق من أمجاد، وعمّا أُترع من لذائذ. فإن طال به العمر كثيرًا، أو أناخ عليه الكبر بكلكله الضخم، نزع في أغلب الأحيان، إلى الملل من الحياة، والزهد في البقاء، والرغبة في الموت للخلاص من مذلة الضعف وهوانه.

ولا ريب في أن الشعراء، بما طُبعوا عليه من رهافة الحس وشفافية الشعور، أكثر تنبّهًا لمرور الزمن، وأعمق إدراكًا بحلول المشيب والشيخوخة، فكان أن عبّروا عن إحساسهم وشعورهم أصدق تعبير، مقدّمين لنا بذلك صورة شاملة عن رؤية الإنسان العربي لعهد كبره وضعفه، سواء أكان ذلك في أثناء حديثهم عن النفور من المشيب، أم في كلامهم عن هاجس الشيخوخة، أم في تصويرهم لمشاهد ضعف الكبر وحالاته.

ـ أولا، المشيب:

لقد ألمحنا، من قبل، إلى أن الشاعر الجاهلي كان يحسّ إحساسا كبيرًا بالزمن، وهذا الإحساس جعله يندفع إلى اغتنام أوقات الشباب، حريصًا عليها أشد الحرص. ولعلنا لا نغلو إذا زعمنا أنه كان يشعر في قرارة نفسه شعورًا ما بأن ذلك الحين قد منحه مقدارًا أكبر من الحرية تجاه الزمن، تلك الحرية التي تمثلت لديه في إشباع رغائبه وتحقيق أهدافه. وربما كان هذا السبب هو الذي جعل الزمن محبّبًا إليه في تلك المرحلة، كما جعل صور الحياة حافلة فيه بالمباهج

والمسرات، وفي الوقت نفسه قلَّل من حديثه عن وطأة الدهر والأيام، وكاد يغيب لديه ذكر الموت والفناء.

أما حين يذوي الشباب، وينفد عهد القوة، وتظهر آيات الكبر متمثلة في الشيب، فإن إحساس الشاعر بالزمن يشرع بالتفاقم، وشعوره بوطأة العمر يبدأ بالازدياد، ودفقة الأمل الجياشة لديه بالحياة تأخذ بالتسرب شيئًا فشيئًا.

ولعل ذلك ماجعل تعاقب الزمن المؤلف من الأيام والليالي والشهور والسنين شديد الوقع على نفس مِسجاح بن سِباع الضَبّي، وكان إحساسه به إحساسا مفرطًا، ولا سيما أنه قطع الأمل منه، بعد أن سلبه من يعتمد عليه في مشيبه وكبره(٤٦):

لقد طوّفْتُ في الآفاق حتى بَلِيتُ وقد أنَى لي لو أبِيدُ
وأفناني، ولا يَفْنَى، نهارٌ ولَيلٌ كلّما يَمضي يعودُ
وشهرٌ مُسْتَهِلٌ بعدَ شَهْرٍ وحَوْلٌ بعده حَوْلٌ جديد
ومفقودٌ عزيزُ الفَقْدِ تأتي مَنِيَّتُهُ ومأمولٌ وَلِيدُ

ولا يستبعد أن يكون امتداد العمر بحاتم الطائي قد زاد في إحساسه بمرور الزمن، إذ أضحى لديه أوقاتًا محدودة في إطار الأيام، ولم تكن تلك الأيام إلا اليوم والأمس والغد، وكأن العمر بحاضره وماضيه ومستقبله قد تجمَّع في شعوره وتركّز في هذه الأيام الثلاثة(٤٧):

هل الدَّهرُ إلاَّ اليومُ أو أمسِ أو غَدُ كذاكَ الزَّمانُ بيننا يتَرَدَّدُ
يَرُدُّ علينا ليلةً بعد يومِهَا فلا نحن ما نبقى ولا الدَّهْرُ يَنْفَدُ

ولقد صور بعض الشعراء انحسار ما مضى بهم من عمر بأنه في منزلة الطعام الذي يأكلونه، فلا يتبقّى منه شيء بعد الأكل، وإنما يفنى فناء تامًا. ولعل

هؤلاء في تصويرهم هذا، أرادوا أن يوحوا إلينا بأن الزمن ببرهاته ولحظاته وساعاته ما هو إلاَّ مدد للحياة، كما أن وجبات الطعام هي أساس استمرارها، معبِّرين بذلك عن شعورهم باقتران حياتهم بالزمن اقترانًا تامًا، وإحساسهم بأن فقدان الشباب وبداية مرحلة الكبر يقرِّبانهم من الضعف والعجز، ويُدنيانهم من النهاية.

ويظهر ذلك جليًّا لدى الحارث بن كعب الذي التهم شبابه، بشهوره وسنيه، وعاصر أجيالا عدة من قومه، حتى آل به الأمر إلى ضعف الكبر، وقلّة حيلته فيه. ومن الجدير بالاهتمام أن الشاعر عبر في شعره تعبيرًا مباشرًا عن الدهر بأنه قيد حدّ من قوته، وقصّر من خطوه، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الفرد كان يشعر بأنه مقيد بالزمن ومقترن به حتى الموت(٤٨):

أكلتُ شبابي فأَفْنَيْتُهُ   وأَفْنَيْتُ بعد شهور شُهورا
ثلاثةُ أهلينَ صاحبتُهُمْ   فبانوا وأصبحتُ شيخًا كبيرًا
قليلَ الطعامِ عسيرَ القيا   م قد تركَ القَيْدُ خَطوي قصيرا
أَبِيتُ أراعي نجومَ السماءِ   أقلِّبُ أمري بُطونًا ظُهورا

وعلى هذا الغرار عبّر ذو الإصبع العَدْوانيُّ عن انقضاء العمر حين ضرب مثلاً بلقمان الذي طالت حياته وعاش زمنا طويلا فكأنّه ظلّ يقتات من أيامه وشهوره وسنيه حتى أتى عليها جميعًا، فانتهى بذلك عمره، وانقضت حياته(٤٩):

هَزِئَتْ زُنَيبَةُ أنْ رأتْ ثَرَمِي   وأَنِ انحنى لتقادُمٍ ظَهْرِي(٥٠)
من بعد ما عَهِدَتْ، فأَدْلَفَنِي   يومٌ يَجِيءُ وليلةٌ تَسْرِي(٥١)
لا تَهْزَئِي منِّي زُنَيْبُ فما   في ذاكَ من عَجَبٍ ولا سُخْرِ
أو لم تَرَي لقمانَ أهلكَهُ   ما اقتاتَ من سَنَةٍ ومن شَهْرِ

ويغلب على ظننا أن إحساس الإنسان العربي، والشاعر بخاصة، ببلوغه مرحلة الكبر أدى به في كثير من الأحيان إلى الشعور بالقلق، لاعتقاده أن هذه المرحلة ستنتهي به حتما إلى الضعف والوهن ومن ثَمَّ إلى الموت. لذلك أضحى نفوره من الشيب أمرًا ملائما لحالته النفسية التي باتت نهبًا لتصورات المستقبل القاتم، بعد أن أيقنت بفقدان الماضي المشرق.

ويعيننا على قبول هذا الظن ما نجده لدى ساعدة بن جُؤَيَّة الهُذَليّ من حالة شبيهة بما ذهبنا إليه، إذ كان موقنا بأن الهرم مترصّد للإنسان، ولا سيما إذا اشتعل رأسه شيبًا، ولحق به داء المشيب الذي لا شفاء له، ولا براء منه، فسلبه القوة، وجعله سقيماً أبدًا(٥٢):

يا ليت شِعْري ألاَ منجَى من الهَرَمِ   أم هل على العيش بعد الشيبِ من نَدَمِ؟
والشَّيْبُ داء نجيسٌ لا دواءَ له   للمرءِ كان صحيحًا صائبَ القُحَمِ(٥٣)

وكان موقف عبيد بن الأبرص من المشيب قريبا من ذلك، فقد ذمَّ الشيب الذي حلَّ برأسه وعاث فيه فسادًا، والذي دفع الغواني إلى مقاطعته، وهجره هجرًا دائما، وقد بلغ به الأمر إثر ذلك أن يعدّ الشيب وصمة تعيب صاحبها وتزري به بين الأنام، بعد أن كان سواد الرأس يزينه، ويرفع من مكانته(٥٤):

وقد عَلاَ لِمَّتي شَيْبٌ فودَّعني   منه الغواني وَدَاعَ الصَّارِم القَالِي
بانَ الشبابُ فآلى لا يُلِمُّ بنا   واحتلَّ بي من مَشيبٍ أيَّ مِحلالِ
والشّيبُ شَيْنٌ لمِن أرسى بساحتِهِ   لله دَرُّ سوادِ اللِّمَّةِ الخالي(٥٥)

ولعل هذه النظرة إلى الشيب هي التي دفعت المُرَقَّش الأكبر إلى محاولة إخفائه بالخضاب، لكن أنَّى له أن يحتال على الزمن، ذلك الذي خلع عنه ثوب الشباب مع سواد الرأس، وألبسه ثوب الكبر مصحوبًا بالشيب والصلع(٥٦):

هلْ يُرْجِعَنْ لي لِمَّتِي إنْ خَضَبْتُها   إلى عهدها قبلَ المَشيبِ خِضابُها
رأتْ أقحوانَ الشّيبِ فوق خَطِيطةٍ   إذا مُطِرَتْ لم يَسْتكِنَّ صُؤابُها(٥٧)
فإنْ يُظْعِنِ الشَّيْبُ الشبابَ فقد تُرى   به لِمَّتِي لم يُرمَ عنها غُرابُها(٥٨)

ويغدو الشيب أحيانا أمرًا يبعث على التساؤل والاستغراب، فقد استنكرت عُمَيْرة بنت أَعْصُر بن أسعد اللونَ الأبيض الذي داهم رأس أبيها، وانتشر فيه، وهي التي ألفت سواده إبَّان الشباب، فيردُّ أعصُرُ على استنكارها بأن ذلك من طبيعة الزمن الذي إذا طال على المرء آل به إلى هذا المآل(٥٩):

قالتْ عُمَيْرَةُ ما لرأسكَ، بعدما نَفِدَ الشَّبَابُ، أتى بلونٍ مُنْكَرِ؟
أَعُمَيْرُ إنَّ أباكِ غَيَّرَ لونَه مَرُّ اللَّيالِي واختلافُ الأعْصُرِ

حقا إن الزمن هو سبب الشيب وعلته الأولى، والملامة كل الملامة على الدهر الذي ما يفتأ يهاجم الجسم بحرابه ليلاً ونهارًا، حتى يفقده قوته، ويحوّله إلى ضعف الكبر والمشيب، من غير أن يكون للمرء قدرة على الإفلات من هذا الهجوم المستمر، أو أن يكون له حيلة للخلاص من هذا العدو الفاتك، وذلك بحسب ما يراه الأفوه الأودي حين يقول(٦٠):

إنْ تَرَي رأسيَ فيه قَزَعٌ وشَواتِي خَلَّةٌ فيها دُوارُ(٦١)
أصبحتُ من بعدِ لونٍ واحدٍ وَهْيَ لونانِ وفي ذاك اعتبارُ
فصروف الدّهر في أطباقِهِ خِلْعَةٌ فيها ارتفاعٌ وانحدارُ
وليالِيه إلالٌ للقُوَى من مُداهِ تَخْتَليها، وشفارُ(٦٢)
حتَمَ الدَّهرُ علينا أنَّهُ ظَلَفٌ ما نالَ منا وجُبارُ(٦٣)
فله في كلّ يوم عَدْوةٌ ليس عنها لامرىءٍ طارَ مَطَارُ

لقد اشتكى معظم الشعراء من امتداد العمر بهم، ولا سيما بعد أن فقدوا قوة الشباب ونضارته، ورأوا في الشيب آية الكبر، ونذير الضعف والهرم؛ لذلك لقي منهم الذمّ والاستهجان والكراهية في أغلب الأحيان، وكان مصدرًا لقلقهم من النهاية المرتقبة والمصير المحتوم. ولم تكن تلك الرؤية مقتصرة عليهم فقط وإنما كانوا يصدرون فيها عن رؤية شاملة للمجتمع القبلي وللإنسان العربي عامة.

ثانيًا : هاجس الشيخوخة :

إنَّ انحسار الماضي بأمجاده وقوته ، وحلول الشيب بهمومه وضعفه جعلا الشاعر الجاهلي ، في حالات كثيرة ، يحسّ بعظمِ ما فقد من زمن كان محببًا إلى نفسه ، ومن عهد كان يتيح له حرية التمتع بالحياة إلى أبعد مدًى . ويبدو أن أفراح الشباب حينذاك وانتهاب لذائذه قد شغلته عن التفكير في الزمن المقبل ؛ إذ لا نكاد نجد لديه رؤية مستقبلية لما سيئول إليه في مشيبه وشيخوخته ، وكأن مباهج الحياة قد أنسته أن ثمة حينًا من الزمن سيأتي عليه ، ويجعله يرى نفسه عاجزًا عن اصطناع الأمجاد والارتواء من اللذائذ . وعلى النقيض من ذلك نجده في مشيبه وكبره قد خيم عليه يأس من المستقبل ، وأضحت تنتابه صور قاتمة عنه ، ، تحفل بمشاهد الضعف والعجز .

فمن ذلك ما رسمه لنا لبيد بن ربيعة في مشيبه من مشهد لما سيكون عليه في شيخوخته ، من وهن في الجسم يجعله يتوكأ على العصا ، ويلزمه أن يقعد في البيت مكتفيًا بالاستماع إلى القصص والأخبار ، فإذا رام السير أو الرحيل أخذ يدبّ على الأرض دبيبًا ، محني الظهر متثاقل الخطو(٦٤) :

أليس ورائي ، إن تراختْ منيتي   لزومُ العصا تُحنى عليها الأصابعُ
أُخبّرُ أخبارَ القرونِ التي مضتْ   أدِبُّ كأني كلَّما قمتُ راكع
فأصبحتُ مثلَ السيفِ غيَّرَ جَفْنَهُ   تقادُمُ عهدِ القَيْنِ والنَّصْلُ قاطعُ (٦٥)

وعلى نحو مماثل كانت رؤية عروة بن الورد لشيخوخته المقبلة ، تلك التي ستحيجه إلى عصًا يتوكأ عليها ، والتي ستحوّله إلى إنسان ضعيف مهانٍ ، منزوٍ في ركن البيتِ ، غير قادر على الغزو والإغارة ، بل غير قادر على المشي الطبعي والسير المستقيم ، مما يبعث بأهله على الملل والضجر منه ، ويبعث بخصومه على الشماتة منه والتشفّي به(٦٦) :

ألَيس ورائي أنْ أدِبَّ على العصا فيشْمَتَ أعدائي ويسأَمَني أهلي
رهينةَ قعْرِ البيتِ كلَّ عشيَّةٍ يُطيفُ بيَ الولدان أهْدُجُ كالرَّألِ(٦٧)

وقد بلغ الأمر لدى الأعشى مبلغًا أبعد من لبيد وعروة في رؤيته المستقبلية، إذ إنَّ هاجس الشيخوخة الذي يراوده جعله يعتقد أن امتداد العمر بالإنسان ما هو إلّا شقاء مضنٍ وتعب منصبٍ يلحقان به، لأنه بذلك يتلقّى ضربات شديدة من الزمن ومصائبه، تدعه في مرض مقيم وحزن دائم، بل ينتهي به تصوره اليائس إلى أن المرء في ذلك الحال لا يختلف عن الميت إلاّ في أن هذا قد دفن في التراب وغاب عن أنظار الأحياء، وذاك قد ظلَّ في العراء من غير دفن ولا ستر(٦٨):

لَعَمْرُكَ ما طولُ هذا الزَّمنْ على المرءِ إلاَّ عَنَاءٌ مُعَنْ
يظلُّ رجيمًا لريب المَنُونِ وللسُّقْمِ في أهلِهِ والحَزَنْ(٦٩)
وهالكِ أهلٍ يُجِنُّونَهُ كآخَرَ في قَفْرَةٍ لم يُجَنْ

ومما يزيد في قلق الشاعر، واضطرابه، وربما خوفه أيضا، من هوان الكبر المرتقب، أن النساء يبدأن، غالبا، بالازورار عنه وهجرانه. ولعل شيئًا لم يكن يحزّ في نفسه ويؤلمه أشد الألم من شعوره بأن المرأة تنظر إليه نظرتها إلى إنسان خالٍ من الرجولة فاقدٍ للقوة، ولا سيما أنها كانت تمثّل في ذهنه أبرز الرغائب التي يسعى الرجل لبلوغها وتحقيقها.

وعسى أن يكون لنا في شعر الأعشى ما يؤكد ذلك، إذ نجده يشكو شكوى مرَّة من الغواني اللواتي صرَمْنَهُ حين رأين أمارات الكبر تلوح في رأسه، وحين فقَدْنَ الأمل بفتوته وشبابه، ولم يشفع ما كان له من ماضٍ حافل باللهو والمتع عندما كانت النسوة هن اللاتي يرغبن فيه ويسعين لطلبه(٧٠):

أَثْـــوَى وقصَّرَ ليلـــةً ليُـــزَوَّدا   فمضَتْ وأخلفَ من قُتَيْلَةَ مَـوْعِـدَا
ومضى لحاجتـــه وأصبحَ حبلُهـــا   خَلَقًـا ، وكـان يظنُّ أن لن يُنكَـدَا
وأرى الغـواني حين شِبْتُ هَجَـرْنَنِي   أنْ لا أكــونَ لهنَّ مثليَ أمَـرَدَا
إنَّ الغــواني لا يـواصِلْنَ امـرأ   فقَـدَ الشَّبـابَ وقـد يَصلْـنَ الأمْـرَدَا
بل ليت شعـري هل أعـودَنْ نـاشئًا   مثْلي زُمَيْنَ أُحِلَّ بُـرْقَـةَ أنْقَـدَا(٧١)
إذْ لِمَّتِـي سَـــوداءُ أتبعُ ظِلَّهــــا   دَدَنًـا قُعُـودَ غَـوايَـةٍ أجـري دَدَا(٧٢)
يَلْـوينني دَيْني النَّهـارَ وأجتـــزي   دَيْني إذا وَقَـذَ النَّعَـاسُ الـرُّقَّـدَا(٧٣)

وقد يحاول الشاعر، من خلال هواجس الشيخوخة التي تنتابه ، إقناع نفسه بأن الشيب والكبر يشملان المرأة أيضا ، فتغدو مثله قاصرة عن إدراك مـا تصبو إليه من الفتيـان الأقويـاء والرجـال الأشداء . وهـذا ما كـان يعتقده بشر بن أبي خازم ، فقد كفَّ عن الغزل وفنونه ، بعد أن داهمه الشيب ، بَيْدَ أنَّ ذلك لم يقتصر عليـه وحده ، وإنما طـالَ أيضًا محبـوبته ، فأضحى كـلاهما في معزل عن اللهـو والصِّبا ، وفي منأى عن تحقيق غايات الشباب ورغائبه(٧٤) :

أجَـدَّ من آل فـاطمـةَ اجتنـابـا   وأَقْصَرَ بعـدَ مـا شـابتْ وشـابَـا
وشـابَ لِـداتُـهُ وعَـدَلْـنَ عنـهُ   كما أبليتَ من لُبْسٍ ثيـــابَـــا
فإنْ تـكُ نَبْلُهَـــا طـــاشَتْ ونَبْلِي   فقـد نـرمي بها حِقَبًـا صِيـابَـا(٧٥)
فتصطــادُ الـــرِّجـــالَ إذا رَمَتْهُمُ   وأصْطَـــادُ المُخَبَّأةَ الكَعَـابَـا(٧٦)

وفي غمـرة الصراع النفسي الـذي يحتدم في داخل الشـاعـر بسبب الكبر ومـا يجري عليه من ضعفٍ في البدن ، وهجران من النساء ، فقـد يزعم أحيانا أنه هو الذي عزف عن الصِّبا ، وامتنع عن ضروب اللهو وخالف هواه في معاشرة النساء الفـاتنات ، بعـد أن كان ذلك من دأبـه ومن متطلبات حياته ؛ وممن زعم هـذا الزعم الأعشى حين قال(٧٧) :

أأَزْمَعْتَ من آلِ ليلى ابتكارا   وشَطَّتْ على ذي هَوًى أنْ تُزَارا
وبانتْ بها غَرَباتُ النَّوَى   وبُدِّلتُ شوقًا بها وادِّكارا
ففاضت دموعي كفَيْضِ الغُرُو   بِ إمَّا وَكيفًا وإمَّا انحدارا(٧٨)
قليلاً فثَمَّ زَجَرْتُ الصِّبَا   وعاد عليَّ عَزائي وصارا
فأصبحتُ لا أقرَبُ الغانيا   تِ مُزْدَجِرًا عن هوايَ ازدجارا
وإنَّ أخاكِ الذي تعلمينَ   ليالينَا إذْ نَحُلُّ الجِفَارَا(٧٩)
تبَدَّلَ بعد الصِّبَا حِكْمَةً   وقَنَّعَهُ الشَّيْبُ منه خِمَارا
فإمَّا تَرَيْنِي على آلةٍ   قَلَيْتُ الصِّبَا وهَجَرْتُ التِّجَارا (٨٠)
فقد أُخرِجَ الكاعبَ المُسْتَرَا   ةَ من خِدْرِهَا وأُشيعُ القِمارا (٨١)

ولعل زهير بن أبي سُلمى كان يحاول إبعاد ما يراوده من هواجس الشيخوخة ووساوس الهرم حين ادَّعى أنه قد صحا من غفلته التي كان فيها أيام الشباب، فكفّ عن الانطلاق في مضمار اللهو والصِّبا، وانقاد لوعظ الشيب ونصحه، فلم يعد ينحرف عن طريق الحق وجادة الصواب. بَيْدَ أن تجربته مع العذارى سرعان ما فضحت بطلان ادعائه، مبينةً مدى حسرته على مفارقة الشباب، ومدى قلقه من نعت «العمّ» الذي أطلقه العذارى عليه(٨٢):

صحا القلبُ عن سَلْمَى وأَقْصَرَ باطِلُهُ   وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبَا ورواحِلُهْ
وأَقْصَرْتُ عمَّا تَعلمينَ وسُدِّدَتْ   عليَّ، سوى قَصْدِ السَّبيلِ، مَعادِلُهْ(٨٣)
وقال العذارى: إنَّما أنت عَمُّنَا   وكان الشبابُ كالخليطِ نُزَايِلُهْ
فأصبحن ما يعرِفْنَ إلاَّ خَلِيقَتِي   وإلاَّ سوادَ الرأسِ والشَّيْبُ شامِلُهْ

ويخيّل إلينا أنَّ الشاعر، في معاناته من تصورات الشيخوخة المقبلة، كان يلجأ غالبًا إلى ماضيه يستمدّ منه ما يسدّ ثغرة الحاضر، ويبعد عنه توقعات المستقبل، بعد أن أضحى مقتنعا بأنه فَقَدَ مظاهر القوة وأسبابها، ولم يعد يجد

وسيلة إليها، سواء في الحاضر الذي يعيش فيه أو في المستقبل الذي سيطر عليه حاملاً معه هموم الكبر وأثقاله.

ولعل استرجاع الشاعر لماضيه لم يكن إلا محاولة يؤكد فيها لنفسه أنَّ ذلك الماضي، بما ينطوي عليه من مظاهر القوة والمتعة واللهو، ما هو إلاَّ جزء لصيق به وقابع في ذاته. وإذا كان الزمن قد أَخْنَى على جسمه فأضعفه وأنهكه، فإن روحه ما زالت تحسّ بإحساس الشباب الماضي، ومازالت تشعر بمشاعر الفتوة الذاوية، وما عرضُه لصور من أمجاد صِباه إلاّ تعبيرٌ عن رفضه الشديد لِمَا آل إليه من مصير، وإنكاره لِمَا يناوش فكره من هواجس، وكأنه يريد أن يثبِّت مشاهد الماضي في مخيلته لتمنعها من إيراد صور المستقبل التي تعكس مظاهر الضعف والهوان والشقاء.

وقد رأينا عند بكائه للشباب تتوارد على خاطره صوره ومظاهره، وهنا أيضا نراه يعمد إلى اجترار ذكريات الماضي ومشاهده ليعرضها على نفسه، وعلى من عيّروه بالكبر، وظنوا أن صورته الحاضرة تمثّل حياته كلها. ولعلنا نجد أصدق تعبير عن هذه الحالة لدى أبي كبير الهُذَلي في مخاطبته لابنته زُهَيْرة، التي أطالت النظر إلى كبره وعجزه وتصوره، فبادر إلى ماضيه يستجلب منه صورًا حافلة بالقوة، وزاخرة بالأمجاد، ومترعة باللذائذ؛ بيْدَ أنه في نهاية المطاف لم يستطع أن يبعد عنه هواجس الشيخوخة الماثلة في ذهنه، فاعترف بأن واقعه الراهن قد محا كل آثار الماضي:

أزهيرُ إنْ يُصبحْ أبوكِ مُقَصَّرًا   طِفلاً يَنُوءُ، إذا مَشَى، لِلْكَلْكَلِ
يَهْدي العمودُ له الطريقَ إذا هُمُ   ظَعَنُوا ويعمِدُ للطريقِ الأسْهَلِ (٨٥)
فلقَدْ جَمَعْتُ من الصِّحابِ سَرِيَّةً   خُذْبًا لِلَداتٍ غيرَ وَخْشٍ سُخَّلِ
ولقد سَرَيْتُ على الظلام بِمِغْشَمٍ   جَلْدٍ من الفتيانِ غير مُهبَّلِ (٨٦)

ولقَدْ شهدتُ الحيَّ بعد رُقادِهِمْ   تُفْلَى جَماجِمُهُمُ بكلٍّ مُقَلَّلِ(٨٧)
نضعُ السيوفَ على طوائفَ منهمُ   فَنُقيمُ منهم مَيْلَ ما لم يُعْدَلِ
ولقد رَبَأتُ إذا الرِّجالُ تواكلوا   حَمَّ الظَّهيرةِ في اليَفاعِ الأطْوَلِ(٨٨)
في رأس مُشْرفَةِ القَذالِ كأنَّما   أَطْرُ السَّحاب بها بَيَاضُ المِجْدَلِ(٨٩)
وجَليلة الأنسابِ ليس كمثلها   مِمَّنْ تَمَتَّعُ قد أتَتْها أرْسُلِي
ساهرتُ عنها الكالِئَيْنِ كليهما   حَتَّى التَفَتُّ إلى السِّماكِ الأعزل(٩٠)
فدخلتُ بيتًا غيرَ بيتِ سَناخة   وازدرتُ مُزْدَارَ الكريم المُعْوِلِ(٩١)
فإذا وذلك ليس إلاَّ حينَهُ   وإذا مضى شيءٌ كأنْ لَمْ يُفْعَلِ

وشبيه بذلك ما كان من شأن ربيعة بن مقروم الضَّبِّيِّ الذي امتدّ به العمر، وثقلت عليه أعباؤه، واشتدّت به وساوسه، فالتفت إلى الماضي يغترف من أمجاده ما يعوِّض به عجز الحاضر وضعفه، فكثيرًا ما جالس الملوك، وكثيرًا ما أفحم الخصوم، ولم يدع من لذائذ العيش شيئًا إلاّ ناله، بَيْدَ أنَّ ذلك كله قد طواه الدهر، وأبلت جدته الأيام(٩٢). ولم تكن حال الأعشى في مشيبه بعيدة عن حال ربيعة، فهو أيضا قد حاول أن يثبت لنفسه أنه فتى الأمس، ذو القوة والاقتدار، وتلك صور أمجاده ومشاهد لهوه يعرضها متتالية، كأنه يريد أن يدفع بها هواجس الشيخوخة التي أخذت تنتابه(٩٣).

ونجد في بعض الأحيان أنَّ أمر الكبر يغدو أشد وقعًا على النفس الشاعرة، وأبعد أثرًا فيها، وذلك إذا كان الشاعر سيدًا شريفًا في قومه؛ لأن قوته وشجاعته وسائر مظاهر الفتوة لديه كان لها الدور الأكبر في منحه تلك المكانة، فإذا أحس بفقدها، وشعر بأنها أخذت تنزوي في حجب الماضي، أدرك سوء الحال التي آل إليها، وبدأت تخيلات المستقبل المتشائمة تخيم على أفكاره، حينئذ لا يرى مُتنفَّسًا له إلاَّ استرجاع ما قبع في ذهنه من ذكريات الماضي، فيلتفت إليها

يناجيها، ويبعثها من جديد؛ لكي يبرهن على أنه قطف ثمار الحياة يانعة، ونهل من ينبوعها الثر حتى الارتواء، على نحو ما كان من شأن زهير بن جناب الكلبيّ حين بلغ من الكبر ما بلغ، فعبّر عن حاله في قوله(٩٤):

أَبَنِيَّ إنْ أهلِكْ فإنِّي   قد بنيتُ لكُمْ بَنِيَّهْ
وجعلتُكم أبناءَ سا   داتٍ زِنادُكُمْ وَرِيَّهْ
من كلِّ ما نَالَ الفتى   قد نلتُهُ إلاّ التَّحيّهْ(٩٥)
ولقد رأيتُ النارَ للسُّلاَّفِ توقَدُ في طَميَّهْ (٩٦)
ولقد رحلتُ البازِلَ الْـ   وَجْناءَ ليس لها وَلِيَّهْ (٩٧)
ولقد غدوْتُ بِمُشْرِفِ الطَّرَفينِ لَمْ يَغْمِزْ شَظِيَّهْ (٩٨)
فأَصَبْتُ من حُمُرِ القَنَا   نِ معًا ومن حُمُرِ القَفِيَّهْ (٩٩)
ونَطَقْتُ خُطْبَةَ ماجِدٍ   غيرِ الضعيفِ ولا العَيِيَّهْ

لقد أفصح الشعراء عما شعروا به من وطأة الزمن عليهم، وعما كان من قلقهم وهواجسهم تجاه مستقبلهم، إذا ما امتد بهم العمر، وقد زاد الحال سوءًا لديهم ما رأوه من موقف النساء السلبي منهم، وهذا ما دفعهم إلى الالتفات نحو الماضي يستحضرونه، ويجلبون منه صور شبابهم وفتوتهم، يتعزّون بها، ويملئون حاضرهم بمشاهدها. وذلك كلّه، يؤكد رؤية الإنسان العربي لحياته التي تتمثل في أزمان متعاقبة وأطوار مختلفة، تحمله في رحلة العمر من ولادته حتى كبره وشيخوخته.

- ثالثا: عجز الشيخوخة:

لا ريب في أن الحياة القبلية في الجزيرة العربية، كما ألمحنا إلى ذلك مرارًا في هذا البحث، كانت تتطلب من الأفراد أن يكونوا أقوياء، لكي يواجهوا قسوة مناخها، فيتحمّلوا ما قد ترميهم به من ظمأ شديد، وما قد تلحق بهم من جوع

مهلك، فضلا عمّاً ترصده لهم في تنقلهم من ضروب المهالك والأخطار، وعمّا تخفيه لهم في ثناياها ومنعطفاتها من حيوانات، تتحين غرة سانحة للانقضاض والافتراس. فإذا قدّمنا على ذلك كله ما كانت تقوم عليه تلك الحياة في معاشها من غزوات و إغارات وحروب أدركنا مدى احتياج الإنسان العربي فيها إلى جسم قوي، وبدن متين، وقدرة مستمرة، تكون وسيلته إلى أسباب العيش، ومنعةً تهيّئ له الحفاظ على حياته وصون وجوده.

ومن المرجح لدينا أن الشاعر الجاهلي قد وعى ذلك وعيًا تامًّا، وأدركه إدراكًا كاملاً، وما كان إحساسه المفرط بالزمن، وجزعه من المشيب، وقلقه من هواجس الشيخوخة، التي عرضنا لها آنفًا، إلاّ صدًى لوعيه وإدراكه لأهمية القوة في الحياة.

ولعل هذا الأمر يغدو أكثر بروزًا وأظهر جلاء ووضوحا لديه حين يُعمَّر طويلاً، فيأتي عليه الدهر بثقله، وينوء على جسمه بكلكله، ويسلب منه كل قوة، ليدعه في شيخوخته مَهيضَ الجناح، واهي القوى، قليل الحيلة، خائر العزيمة، فيزداد بذلك ألمه من الزمن، وتزداد حسرته على ما مضى من العمر، ويضحى، غالبًا، متذمرًا من الحياة، كثير الشكوى من الأحياء، معبّرًا عن ذلك في شعره تعبيرًا صادقًا، عارضًا علينا فيه صورًا تمثل ما آل إليه في شيخوخته من ضعف شديد وعجز كبير.

وقد تركزت معظم هذه الصور حول حالتين من حالات الشيخوخة لديه، فأبرزت في الحالة الأولى شكواه المريرة مما لحق به من ضروب الوهن والقصور، وأبرزت في الحالة الثانية مكابدته ومعاناته من الموقف السلبي الذي يقفه منه أهله وأقرباؤه وقبيلته عامة.

ويبدو أن هاتين الحالتين قد دفعتاه، في أحيان كثيرة، إلى اليأس من الحياة والرغبة في الموت، على الرغم من أنه كان، في بعض الأوقات، يعزّي النفس بما

للشيخوخة من جانب إيجابي في الحكمة والخبرة والتجربة التي يتصف بها صاحبها، وترفع من مكانته في قومه وقبيلته.

فمن الشعراء الذين نجد سمات الحالة الأولى ظاهرة لديهم عمرو بن قميئة؛ وذلك حين بلغ أرذل العمر، وحمل أثقال تسعين عامًا على كاهله، ممَّا جعله يفقد عزيمة النفس، فلا يقدر على ضبط أموره، ويفقد قوة البدن، فلا يقدر على النهوض مباشرة إذا رام القيام. ويبدو أنه كان مقتنعا بأن سبب كبره وضعفه يعود إلى الدهر ومصائبه ومكارهه، تلك التي أخمدت وهج الأمل في نفسه، وأفقدته الرجاء في عودة القوة والحيوية إليه للاستمرار في الحياة والبقاء بين الأحياء(١٠٠):

كأنِّي، وقد جاوزت تسعين حِجَّةً، خلعتُ بها يومًا عِذارَ لِجامي(١٠١)
على الراحتين مرةً وعلى العصا أنوءُ ثلاثًا، بعدهنَّ قِيامي
رَمَتْنِي بناتُ الدَّهر من حيث لا أرى فكيف بمَنْ يُرْمَى وليس برامِ
فلو أنَّها نَبْلٌ إذًا لاتَّقَيْتُهَا ولكنَّني أُرمَى بغيرِ سِهامِ
إذا ما رآني الناسُ قالوا: ألم تكنْ حديثًا جديد البَزِّ غيرَ كَهامِ(١٠٢)
وأهلكني تأميل يوم وليلةٍ وتأميلُ عام بعد ذاكَ وعامِ

وعلى نحو قريب صوّر ذو الإصبع العَدْوانيُّ نفسه شيخًا قد ضعف بصره، وقلّ سمعه، وانحنى ظهره، فغدا واهن العظم، فاقد القوى، قليل الحركة(١٠٣):

أصبحتُ شيخًا أرى الشخصَيْنِ أربعةً والشَّخص شَخْصينِ لمَّا مَسَّنِي الكِبَرُ
لا أسمعُ الصوتَ حتى أستديرَ لهُ ليلاً، وإنْ هو ناغاني به القَمَرُ(١٠٤)
وكنتُ أمشي على الرِّجلين معتدلاً فصرتُ أمشي على ما تُنبِتُ الشَّجَرُ
إذا أقومُ عَجنْتُ الأرض مُتَّكِئًا على البَراجِمِ حتى يذهبَ النَّفَرُ(١٠٥)

وفَقَدَ عامر بن جُوَيْنٍ الطَّائيُّ في شيخوخته الأمل في أن يعود سليم البدن، ممتلئًا صحة وعافية ونشاطًا، وذلك بعد أن تَغَضَّن منه الجلد، وشاب الرأس، وتقاصر الخطو، وذهب السمع، وتشقَّص الضرس، وتكاثرت لديه الهموم والأحزان على مَنْ هلك قبله من الأهل والأقرباء(١٠٦):

المرءُ يبكي للسَّـلا   ـمةِ والسَّلامةُ لا تُحِسُّهْ
أَوَ سالِمٌ مَنْ قد تثنَّـ   ـى جلدُهُ وابيضَّ رأسُهُ؟
أو دَبَّ من هَرَمٍ وأوْ   دَى سمعُهُ وانْقَضَّ ضِرْسُهُ
أودَى الزمانُ بأهلِهِ   وبأقْرَبَيْهِ، فَقَلَّ أُنْسُهُ

وقد أضاف الحارث بن التَّوأم اليَشكُوريُّ إلى مظاهر ضعف البدن ضعفًا آخر في النفس، يُجلَّى في فقدانه قوة الإرادة التي تساعده على تسيير أمور حياته، ويُجلَّى أيضا في فقدانه القدرة على منع الذل ورفض الإهانة(١٠٧):

زعمتْ ثُمامةُ أَنَّني قد سُؤْتُها   ولقد أنى لِيَ أنْ أَسُوءَ وأكبرَا
إنَّ الكبيرَ إذا يُشافُ رأيتَهُ   مُقْرَنْشِعًا، وإذا يُهانُ استزمرا
وإذَا تَرَحَّل في الرِّعيَّة خِلْتَهُ   كَسِلاً وعَزَّ عليه أن يتعَذَّرا(١٠٨)
وإذا تراءى القومُ شخصًا خالَهُ   شخْصَيْنِ ثُمَّتَ لم يكن هو أبصَرَا

و إذا انتقلنا إلى الحالة الثانية وجدنا أنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بما عرضه لنا الشاعر في حالته الأولى كما تتأثر بها تأثرًا مباشرًا، إذ إنَّ شعور الفرد بالعجز زاد من إحساسه غالبًا بأن مكانته بين قومه آخذة بالزوال، وزاد في قناعته بأنه أضحى كلاً وعالة على أهله ورهطه. وآيات ذلك لديه ظاهرة في إهمالهم له إهمالاً واضحًا، وفي إبرامهم الأمور التي تخصه من غير مشورته، وفي تركه وحيدًا منتبذًا في البيت، بل قد يبلغ الأمر بهم أحيانًا أن يدعوا أطفالهم يحترشون به،

ويزعجونه، من غير أن يلتفتوا إلى ذلك أو يعيروه اهتماما.

فمن ذلك ما صوره لنا دُريد بن الصِّمَّة، في شعره، من موقف قومه منه، بعد أن أسنّ، وضعف جسمه، ووهن عظمه، فقد أقصوه عن مجالسهم، ونأوا به بعيدًا عن منازل ساداتهم وأشرافهم، فغدا كطير قد جُزّ منه الجناحان، أو كفرخ من الفراخ قد وقع في مخالب حيوان مفترس، فلم يستطع خلاصًا منها، فضلا عن أنهم قد حرموه حتى من إبداء الرأي وإسداء المشورة، على الرغم من أن عقله لا يزال راجحًا، وحكمته لا تزال صائبة، منتهيًا إلى أنَّ ذلك كله كان نتيجة لطول الزمن الذي امتد به، والذي أنهك جسمه، وقصّر خطوه، وأفقده قواه(١٠٩):

أصبحتُ أَقْذِفُ أهدافَ المَنُونِ كما ... يَرْمي الدَّرِيئَةَ أدْنى فُوْقَةِ الوَتَرِ(١١٠)
في مِنْصَفٍ من مدى تسعين من مئة ... كرَميةِ الكاعب العذراءِ بالحَجَرِ(١١١)
في منزلٍ نازحٍ مِ الحيِّ مُنْتَبَذٍ ... كَمَرْبَطِ العَيْرِ لا أُدْعى إلى خَبَرِ
كأنني خربٌ قُصَّتْ قوادِمُهُ ... أو جُثَّةٌ من بُغَاثٍ في يَدَيْ خَصِرِ(١١٢)
يَمضون أمرَهُمُ دوني وما فَقَدُوا ... منّي عزيمة أمرٍ ما خلا كِبَرِي
ونومةٍ لستُ أقضيها وإن مُتِّعَتْ ... وما مضى قبلُ من شأوي ومن عُمُرِي
وإنّني رابني قَيْدٌ حُبِسْتُ به ... وقد أكونُ وما يمشي على أثَرِي
إنَّ السنين إذا قاربْنَ من مئةٍ ... لَوَيْنَ مِرَّةَ أحوالي على مِرَرِ(١١٣)

وشبيه بهذا ما شكا منه مَصَاد بن جناب اليربوعيّ حين جاوز المائة، فأضحى قعيد الدار، يتولى أمره الآخرون، فيقيدون حريته، ويمنعونه من تحقيق رغائبه، فلا يجد بدًّا من الانقياد لهم ذليلاً مهانًا؛ لأنه بات بلا حول ولا قوة(١١٤). كذلك كان شأن سِمْعَان بن هُبيرة الأسديّ في شيخوخته، إذْ أصبح سخرية قومه، ونسائهم بخاصة، عندما كثر شيب رأسه، وتقوّس ظهره، وغدا

ملازمًا البيت، لا يقدر على تحصيل الأمجاد كما كان شأنه إبَّان عهد فتوته وشبابه(١١٥).

وبلغ الأمر بأحفاد المُسْتَوغِر بن ربيعة أن اعتادوا على الاحتراش به، ومحاولة إيذائه، حتى خال أنهم غدوا يكرهون بقاءه، ويرغبون في موته والتخلص منه. وذلك لمَّا رأوا ما آل إليه من كبر أثقل سمعه، وجعله لا يستجيب إلا إذا دُعي بأعلى صوت وأجهره(١١٦):

إذا ما المرءُ صمَّ فلم يُناجَى　　وأودَى سَمْعُهُ إلاَّ نِدايَا(١١٧)
ولاعَبَ بالعشيِّ بَنَى بنيهِ　　كفعل الهِرِّ يحترشُ العَظايا(١١٨)
يُلاعبهم وودُّوا لو سَقَوْهُ　　من الذيفانِ مُتْرَعَةً مِلايا(١١٩)
فلا ذاقَ النَّعِيمَ ولا شرابًا　　ولا يُسْقَى من المرضِ الشِّفايا

وهذا الموقف من الأهل والأقرباء تجاه الشاعر الشيخ جعله في بعض الأحيان يلجأ إلى فنه الشعري، يتخذه وسيلة إلى معاتبتهم وتذكيرهم بحقوقه عليهم، وواجباتهم نحوه، وأدناها أن يولوه عناية واهتماما، فيقدّموا إليه ما يحتاجه ويناسبه في مختلف الأوقات. وهذا ما نجده واضحا لدى الرُّبَيْعِ بن ضَبُع الفَزَاريّ في معاتبته لبنيه وأزواجهم معاتبة رقيقة، تنطوي على شيء يسير من التقريع والتأنيب:

أَلا أَبْلِغْ بَنِيَّ بنِي رُبَيْع　　فأنذالُ البنين لكمُ فِدَاءُ
بأَنِّي قد كبرتُ ورَقَّ عَظْمِي　　فلا يَشْغَلْكُمُ عنِّي النِّسَاءُ
وإنَّ كَنائني لنساءُ صدقٍ　　وما أشكو بَنِيَّ وما أساءوا
إذا جاء الشتاءُ فأدْفِئوني　　فإنَّ الشيخَ يُهْرِمُهُ الشتاءُ
وأمَّا حين يذهب كلُّ قُرٍّ　　فَسِرْبَالٌ خفيفٌ أو رِدَاءُ

بيْدَ أن الشاعر لم يكن في الغالب ليرضى عن معاملة قومه له، أو ليرضى عن وضعه العام في الحياة، ونحن نرى أن إحساسه الشديد بمظاهر الشيخوخة من ضعف وعجز وقصور كانت تدفعه إلى الاعتقاد أن مهمته في الحياة قد انتهت أو أوشكت على النهاية، فقد أضحى بمنأى عن مشاركة القبيلة في غزواتها أو في الذود عن حياضها، كما أصبح في معزل عن ارتياد مجالس اللهو والأنس وبلوغ المتع واللذائذ، ولم يتبقّ له إلاّ أن يقعد مع الخوالف والأطفال والمرضى، تنتابه الهموم والأحزان، وتستبد به الهواجس من كل حدب وصوب، ولا سيما أنه لم يجد في حياة الصحراء وأيامها الطويلة ما يشغله عما هو فيه من تعب ونصب.

فإذا أضفنا إلى ذلك كله ما ورد عن العرب من أن منهم مَنْ كان يحجب الرجل الكبير، فيتركه في بيت خاص ترعاه فيه الإماء(١٢١). فإننا لا نستغرب بعد ذلك أن نجد الشعراء، والمعمَّرين منهم خصوصا، ينزعون في أشعارهم إلى اليأس والسأم والضجر من الحياة، ويبثون فيها روح التشاؤم من استمرار العيش، بل قد يميل بعضهم إلى تفضيل الموت على حياة فيها ذل الكبر ومهانة الشيخوخة.

ولعل أكثر النصوص الشعرية التي قد مناها في هذه الفقرة قد عبّرت عن الحالة التي ألمحنا إليها، علاوة على ذلك ما نجده لدى زهير بن أبي سُلمى من ملل من الحياة، وازدياد سأمه من تكاليفها وأعبائها، على الرغم من أنه لم يعش فيها سوى ثمانين عاما(١٢٢):

سَئِمْتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يَعِشْ ثمانين حولاً، لا أبالكَ، يَسْأَمِ

وكذلك كان الشأن لدى لبيد بن ربيعة حين طال به العمر، وامتد به الأجل، وكثر سؤال الناس عن حاله في شيخوخته(١٢٣):

ولقد سَئِمْتُ من الحياةِ وطولها وسؤالِ هذا النَّاسِ: كيف لَبِيدُ؟

وقد أبان عامر بن جُوَيْن في شعره عن سبب يأسه من الحياة وتشاؤمه مما قد تأتي به أيامها، بأن ذلك يرجع إلى إهمال قومه، وإبقائهم له مع النساء في ترحالهم؛ لما هو فيه من ضعف وعجز بلغا به مبلغًا جعله يطرد الكلاب التي تأوي إلى ظل جمله من الحر، وذلك خشية أن ينفر به فلا يستطيع أن يملك رأسه، ويمسك بزمامه(١٢٤):

ماذا أُرَجِّي من الحياةِ إذا   خُلِّفْتُ وَسْطَ الظَّعائنِ الأوَّلِ
معْتَنِزًا أطردُ الكلابَ عن الظِّلِّ   إذا ما دَنَونَ للجَمَلِ(١٢٥)

وهذه الحال ذاتها هي التي دفعت بزهير بن جَناب إلى أن يفضل الموت على أن يظل ملازمًا الظعائن، لا يقدر أن يركب مع الفرسان وأن ينزل معهم(١٢٦):

فلَلْمَوْتُ خيرٌ من حِداجٍ مُوَطًّأٍ   مع الظّعْنِ لا يأتي المَحَلَّ لحينِ(١٢٧)

وقد توصَّل بعض الشعراء، إثر ما لاقى من متاعب الكبر وأشجانه، إلى ما يشبه فلسفة فكرية معينة؛ تقرر أنه إذا كانت القوة هي أساس حياة المرء في البادية فإن من الأفضل للمرء أن يموت حين يفقدها على أن يبقى حيًّا يعاني من آلام الشيخوخة البدنية والنفسية. وذلك ما نجد ملامحه واضحة لدى زهير بن جناب عندما قال(١٢٨):

والموتُ خيرٌ للفتى   وَلْيَهْلِكَن وبه بَقِيَّهْ
من أن يُرَى الشيخَ البَجَا   لَ، وقد يُهادَى بالعشيّهْ(١٣٩)

ويبدو أن بعض الشعراء كان يحاول أحيانا أن ينظر إلى المستقبل نظرة الأمل والتفاؤل، فيزعم أن روحه ما زالت قوية، وأن نفسه ما زالت في حدتها ونشاطها، على الرغم من ضعف الجسم ووهن العظم، كما نتبين ذلك في قول لبيد بن ربيعة(١٣٠):

فأَصْبَحْتُ مثلَ السيفِ غَيَّرَ جَفْنَهُ   تقادُم عَهْدِ القَيْنِ والنَّصْلُ قاطعُ

وأعطى شُعْبَة بن قُمَيْر الطُّهَوِيّ صورة مماثلة عن بقاء النفس فيه قوية، والإرادة لديه ماضية(١٣١):

وعدتُ كنَصْلِ السَّيفِ رَثَّتْ جُفُونُهُ   وأبدانُهُ، والنَّصْلُ غيرُ كَلِيلِ

وذهب شعراء آخرون إلى أنهم لا يزالون في كبرهم يتصفون بالأخلاق الفاضلة، ويقومون بالأعمال المجيدة التي كانوا يقومون بها إبَّان شبابهم، بل زادوا عليها حكمة استخلصوها من خبرة الأيام وتجاربها، على نحو ما يفخر به عَوْف بن عَطيَّة في قوله(١٣٢):

وقالتْ كُبَيْشَةُ من جهلها   أَشَيْبًا قديمًا وحِلْمًا معارا؟
فما زادني الشيبُ إلاَّ نَدًى   إذا استروحَ المرضعاتُ القُتارا(١٣٣)
أحَيِّي الخليلَ وأعطي الجزيلَ   حياءً وأفعلُ فيه اليَسارا(١٣٤)
وأمنعُ جاري من المُجْحِفا   تِ والجارُ مُمْتنِعٌ حيث صارا

وشبيه بهذا ما افتخر به مالك بن حريم الهَمْدانيُّ، في شعره، من أنه بعد مشيبه ظل يأبى على نفسه أن يقعد عن حماية قومه، أو أن يغفل عن إكرام الضيف النازل به، أو أن يخرق حرمة الجوار ويمتنع عن إكرامه(١٣٥). وكذلك كان شأن لبيد بن ربيعة، حين ردَّ على من عيّرته بالشيب والكبر بأن حاله تلك إنما أتت مما يقاسي من خطوب لا يقوم لها إلاّ السادة الكرماء العقلاء، وممَّا يقدمه من أفعال خيِّرة في أزمان الشدة وأيام المحن(١٣٦).

وإذا كان قد ورد عن بعض العرب أنهم كانوا يحجبون شيوخهم فإن ذلك لم يكن سائدا بينهم جميعا، وإنما كان العرب عامة يحمدون آراء الشيوخ ويرفعون

من مكانتهم، لما مرَّ عليهم من التجارب التي عـرفوا بها عواقب الأمور، ولما طرأ عليهم من الحوادث التي أوضحت لهم طـريق الصواب، لما مُنحـوا من أصالـة الرأي وصواب الحكمة(١٣٧). ولعل حجب بعضهم للشيوخ إنما كان يتم عنـد عجـزهم عجـزًا تـامًّـا، يجعلهم يفقـدون القـدرة على الحركـة، ويضعفـون عن المحاكمة السليمة وإبداء الرأي الصائب.

بَيْدَ أننا في كـلامنـا على المشيب والكبر قـد اهتممنـا اهتمامًا زائدًا بما عبَّر بـه الشعراء أنفسهم عن الأحاسيس والمشاعر في ذينك العهدين، وكانت الصورة، لدى معظمهم، تنبئ بكرههم للشيب والكبر والشيخوخـة كرهًا واضحًا، ظهر في نفورهم من المشيب، وفي محاولتهم إبعاد هـواجس الشيخوخة عن أفكارهم، كما بـرز لدى المعمَّـرين منهم خصوصـا من معانـاتهم معانـاة شديـدة من وطأة الشيخوخة وما تجره عليهم من مظاهر العجز ومجافاة الأهل.

وذلك كلـه قد نتج لـديهم من تجارب ذاتية، ومـن معانـاة شعوريـة، كانـوا يصـدرون فيها عن رؤيتهم الشخصيـة الخاصـة بتلك المرحلة من العمـر؛ ولعل هذا مـا جعل تلك الـرؤية صـادقة في التعبير عن ذوات أصحـابها، وواقعية في تصوير أحـاسيسهم وانفعالاتهم. وأغلب الظن أن الأغراض الشعـرية الأخرى افتقـدت، في معظمها، رؤيـة مشـابهة، ذلك لأنها كشفت عن أغوار الإنسـان العربي في موقفه من زمنه الضيق، وجلّت أبعـاده النفسية حيال النهاية المرتقبة، وفي الوقت نفسه لم تغفل عن إظهـار أثر البيئة التـي عاش فيها، وأثـر المجتمع الذي امتد به الأجل بين ظُهرَانيه.

● ● ●

الهوامش

(١) الديوان : ص ٣١٥.

(٢) الجبّة : حديدة السنان الذي يدخل فيها الرمح. تثقيف الرماح : تسويتها وإصلاح سنانها وتحديدها.

(٣) الكتيف : الضَّبّة، وهي من أدوات الحدادة والصياغة.

(٤) الدّليف : مشي في خطو متقارب قصير.

(٥) أساس البلاغة : مادة (فتي)، ولسان العرب : مادة (فتا)، والقاموس المحيط : مادة (فتاء).

(٦) شرح القصائد العشر : ص ١٢٣ ـ ١٢٥.

(٧) قصائد جاهلية نادرة : ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٨) صهباء : شقراء. والخِرْس : الدَّنّ.

(٩) عانية : خمر منسوبة إلى عانة، وهي قرية على الفرات في العراق، وقيل موضع بالجزيرة.

(١٠) المناجد : المقاتل. وطعنة خلس : أي طعنة سريعة بحذق.

(١١) اللُّعْس : جمع لعساء، من «اللَّعَس»، وهولون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا.

(١٢) العَنْس : الناقة الصلبة. والبليَّة : هنا، الناقة أبلاها السفر.

(١٣) مجالس ثعلب : ١/ ٢٩٥، والأمالي : ٢/ ١٧٠، وورد فيه أن اسم الشاعر سَلْمَى ابن غويَّة بن سَلمَى. وعوية أو غويّة بن سلمى أبو الشاعر، ورد أنه من ضبَّة من بني ثعلبة، شاعر جاهلي. انظر معجم الشعراء : ص ١٥٧.

(١٤) الإرشاق : إحداد النظر.

(١٥) أي وطراد خيلٍ خيلاً مثلها التقتا في الحرب.

(١٦) الديوان : ص ٦٧ ـ ٧٣, .

(١٧) الديوان : ص ١٣ ـ ١٤.

(١٨) شرح القصائد العشر: ص ٤٢٨ ـ ٤٣٠ .

(١٩) الاختيارات: ص ٢١١ ـ ٢١٥ ، والطرائف الأدبية: ص ٧٢ ـ ٧٥ مع بعض الاختلاف في رواية الأبيات. وعمرو بن قِعاس من بني غُطَيْف، من مراد، شاعر جاهلي . انظر معجم الشعراء ص ٥٩ ، والاشتقاق ص ٤١٣ .

(٢٠) استُميتُ: طُلبتُ، والظباء تُستَمَى، أي تُطلب وتُرمى نصف النهار.

(٢١) يقول: إذا رأيت قومًا مجتمعين على زق دخلت معهم.

(٢٢) الشِّكَّة: السلاح. والأُفُق: الشديد الموثّق.

(٢٣) المحاجر: جمع المَحْجِر، وهو ما دار بالعين من جميع الجوانب، وأراد: مهاة سوداء المحاجر.

(٢٤) التامور: شيء يُشبَّه بالخمر وبالدم وبالصبغ، و إنما يعني دمًا هَرَاقَهُ. وحَبَّة: يقال: حبّة نفسه أي حاجتها.

(٢٥) قيل: إنه هجا ملكًا، لم يهجه أحد، فكأنه أكل لحمه.

(٢٦) البرك: القطعة من الإبل. المَشْرِفيّ: السيف. العُقْر: حيث تقع أيدي الإبل على الحوض يقول: خاف أن تبرك فبادرها فرماها.

(٢٧) شرح القصائد العشر: ص ١٣٠ .

(٢٨) الديوان: ص ١٩٩ .

(٢٩) الخَود: الشابة المنعَّمة. يستمي: يطلب. والقُحَم: الأهوال، مفردها: قُحمَة.

(٣٠) لَقِحت الحرب: اشتدت. وأعلى: يقال: أعلى عن الدابة، إذا نزل عنها. النّمارق: جمع النُّمْرُقَة، وهي الوسادة الصغيرة، يُتَّكأُ عليها.

(٣١) الديوان: ص ١٢٣ ، وانظر قطعة شعرية في المعنى نفسه: ص ١١٣ .

(٣٢) الديوان: ٤٨ ـ ٥٠ .

(٣٣) الأُمم: العظيم والصغير، من الأضداد، وهنا الصغير.

(٣٤) الَميْعة: من الشباب ومن كل شيء، أوله. والعُصُم: جمع الأعصم، وهو الوعل.

(٣٥) الرِّيط: جمع الرَّيطة، وهي الملاءة. والتِّجار: جمع تاجر، والعرب تسمي بائع الخمر تاجرا واللِّمم: جمع اللِمَّة وهي الشعر المجاوز شحمة الأذن.

(٣٦) شرح أشعار الهذليين: ٣/ ١٠٦٩ ـ ١٠٧٠ ، وورد فيه أن اسم الشاعر عامر بن الحُلَيس، أحد بني سعد بن هذيل، واكتفى ابن قتيبة بأنه عامر بن الحُلَيس شاعر

جاهلي، الشعر والشعراء: ٢/ ٦٧٠.

(٣٧) القِذَال: ما بين الأذنين والقفا. والهَيْضَل: الجماعة من الناس يُغزى بهم. ومَرِس: ذو شدة.

(٣٨) لففَتُ بهم: كنت رئيسًا عليهم. ومُحلَّل: يقول: كان عليهم نذر فأحلوه.

(٣٩) يُفل سيف لم يُسلل: كنَّى بذلك عن هزيمتهم واندحارهم.

(٤٠) النوادر في اللغة: ص ٤٤.

(٤١) مُلاوةً: قليلاً. شبارق: مقطّع.

(٤٢) اجتَوَتْ: كرهت. اللِّدات: جمع اللِّدة، وهو الذي ولد معك وتربّى معك. والغرانِقُ: جمع الغُرنُوق، وهو الشاب الأبيض الجميل.

(٤٣) الديوان: ص ٩٠ _ ٩٤.

(٤٤) اليعاقيب: جمع يعْقوب، وهو الحجَل، وقيل إنه العُقاب.

(٤٥) التأويب: الإمعان في السير، والتأويب: الرجوع أيضا.

(٤٦) الحماسة: ٣/ ١٠٠٩، وذكر ابن دريد أن مِسجاح بن سِباع من ضَبَّة، وأنه كان من المعمَّرين، الاشتقاق: ص ١٩٦.

(٤٧) الديوان: ص ٣٤.

(٤٨) الشعر والشعراء: ١/ ١٠٥، والأبيات مع بعض الاختلاف في الرواية في ا لمعمَّرين والوصايا: ص ١٢٤. وقد نسبها السجستاني إلى مالك بن المنذر البَجَلي. ووردت أيضا في أمالي المرتضى: ١/ ٢٣٢. وقد ذكر ابن قتيبة في المصدر الأول أن الحارث بن كعب كان قديما ويعدّ من أوائل الشعراء.

(٤٩) الديوان: ص ٣٩ _ ٤٠، ونسبت الأبيات في مجالس ثعلب: ١/ ٢٩٦ إلى سلمي ابن عويّة، وفي الأمالي: ٢/ ١٧٠ إلى سلمي بن غويّة.

(٥٠) الثّرم: انكسار السن من أصلها، وذلك من أمارات الكبر.

(٥١) أدلفني: صيّرني أدلف، أي أمشي رويدا.

(٥٢) شرح أشعار الهذليين: ٣/ ١١٢٢.

(٥٣) النجيس: الناجس، وهو الذي لا يكاد يبرأ منه من الأمراض. والقُحَم: جمع القُحْمة، وهي المهلكة، أي إذا اقتحم قُحْمة لم يطش.

(٥٤) الديوان: ص ١٠٠ _ ١٠٤.

(٥٥) السواد الخالي: الماضي، أو الخالي من الشيب.

(٥٦) المفضليات: ص ٤٨٤.

(٥٧) الخَطيطَة: أصلها أرض لم تمطر بين أرضين ممطورتين، شبه صلعته بها لأنه لا نبت فيها واستكنَّ: استتر، والصُّؤاب: جمع الصُّؤابة، وهي بيضة القمل أو صغاره، وقد صئِبَ رأسه كثر صُؤابه.

(٥٨) لم يُرِمَ عنها غرابُها: شبه سواد شعره بالغراب، أراد أن شعره كان أسود دائما.

(٥٩) المفضليات: ص ١٠٢، وطبقات فحول الشعراء: ١/ ٣٣، مع بعض الاختلاف في الرواية.

(٦٠) الديوان (الطرائف الأدبية): ص ١١ ـ ١٢.

(٦١) القَـزَع: جمع القَزَعَة، قطع من السحاب صغار متفرقة، وأن يُحلق رأس الصبي وتترك مواضع منه متفرقة تشبيها بقُزَع السحاب. والشَّواة: جلدة الرأس.

(٦٢) إلال: جمع ألَّة، وهي الحربة. و المُدَى: جمع مِدْيَة، وهي الشفرة، والضمير يعود على الدهر. واختلى: جزًّ، يقال اختلى النبات إذا جزَّه، والضمير يعود على القُوى. والشِّفار: جمع الشَّفرة.

(٦٣) الظَّلَف: الهدَر، وكذلك الجُبار.

(٦٤) الديوان: ص ١٧١.

(٦٥) يقول: قد بَلِي بدني، ونفسي في حِدَّتها وعزَّتها كالسيف.

(٦٦) الديوان: ص ١١٤.

(٦٧) الهَدَج: تدارك الخطو. والرَّأْل: فرخ النَّعام.

(٦٨) الديوان: ص ١٥.

(٦٩) الرَّجيم: المرجوم، ورجمه: رماه بالحجارة، وقتله، أولعنه وطرده. وريب المنون: صروف الدهر وتقلّبه ومصائبه.

(٧٠) الديوان: ص ٢٢٧، وانظر له شعرا آخر في المعنى نفسه: ص ١٥ ـ ١٦ وص٢٧، وص ٤٥.

(٧١) بُرْقَة أَنْقَد: موضع.

(٧٢) أتبع ظلها: يقال: «هو يتبع ظلّ لِمَّته، ويباري ظِلَّ رأسه» إذ اختال. والدّد والدَّدن: اللهو اللعب. وقُعودَ غَوايةٍ: أي قاعدًا في الغَواية.

(٧٣) يلويننى: يَمْطلنني. واجتزي: أتقاضى. ووَقَذ: صرَعَ، أراد أن النساء كنَّ يمطلنه حقه نهارا، ولا يقبلن أداءه إلا ليلاً بعد نوم الناس.

(٧٤) الديوان: ص ٣١، ونسبت الأبيات إلى معاوية بن مالك في المفضليات: ص٦٩٧.

(٧٥) الصِّياب: جمع الصَّائب.

(٧٦) الكَعاب: الجارية التي كَعَب ثديها ونَهَد.

(٧٧) الديوان: ص ٤٥.

(٧٨) الغُروب: جمع غَرْب، وهو الدّلو العظيمة. والوكيف: انهمار الدّمع.

(٧٩) الجفار: موضع بالبصرة.

(٨٠) الآلة: الحالة والشدة والتِّجار: قصد بهم تجار الخمر.

(٨١) المُسْتَراة: المختارة، من استريت الشيء إذا اخترت سَرَاته وأحسنه.

(٨٢) الديوان: ص ١٢٤ _١٣٥.

(٨٣) المَعادِل: جمع المَعْدَل، وهو كل ما عُدِل فيه عن القصد.

(٨٤) شرح أشعار الهذليين: ٣/ ١٠٧٠ _ ١٠٨٠.

(٨٥) الحُدْب: جمع الأحدب، وهو الأهوج الذي يركب رأسه فلا يرده شيء. ولِدَات: جمع لِدَّة، وهو المقارب لك في السن. والوَخْش: النذل من كل شيء. والسُّخَّل: الضعاف، من سَخَّل الرجل إذا عابه وضعفه.

(٨٦) المِغْشَم: الذي يغشم الناس ويظلمهم والمُهبَّل: الكثير اللحم.

(٨٧) تُغْلى: تُعلى. ومُقلّل: أي بكل سيف جعلت له قُلَّة.

(٨٨) رَبَأْتُ: أي كنت ربيئة لهم وحَمَّ الظهيرةِ: معظمها.

(٨٩) مُشْرِفَةُ القَذَال: أراد هضبة لها عنق مشرف. المُجَدَّل: القصر.

(٩٠) الكالئ: الرقيب. السِّماك الأعزل: نجم في السماء وهما سِماكان. أي ظل ساهرا حتى ظهر السِّماك ونام الرقيبان.

(٩١) السَّناخة: الوسخ والريح المنتنة، أي دخلت بيتا طيب الريح. المُعْوِل: المُدِلّ عليه، وعَوّلتُ عليه: أدللتُ عليه.

(٩٢) انظر شعره في الأغاني: ٢٢/ ١٠٤.

(٩٣) انظر ديوانه: ص ٨٣.

(٩٤) طبقات فحول الشعراء: ١/ ٣٦ـ٣٧، وورد فيه أن زهيرا كان قديما شريفا اجتمعت عليه قُضاعة كلها، ووردت الأبيات مع بعض الاختلاف في الرواية في المعمَّرين والوصايا: ص ٣٣. كما وردت الأبيات ما عدا السادس والسابع مع بعض الاختلاف في الرواية في الأغاني: ١٩/ ٢٢.

(٩٥) التحيَّة: المُلك أو البقاء.

(٩٦) السُّلَّاف: جمع سالف، وهو المتقدم في السير. وطَمِيَّة: رأس جبل منيع كان به منزل زهير بن جناب، وعليه رفعت النار يوم «خُزازى».

(٩٧) البازل: الذي استكمل الثامنة من الإبل وطعن في التاسعة. والوجناء: الناقة الغليظة الصلبة. والوليّة: البَرْذَعة التي توضع على متن الناقة.

(٩٨) الطرفان: أراد بهما العنق ورءوس الوركين. ولم يغمِز: لم يَظْلَع في مشيته. والشَّظِيّة: إبرة من العظم في وظيف الفرس.

(٩٩) القَنان: جبل لبني أسد. والقفيَّة: موضع. وقيل أراد بحُمُر القَنانِ أسرى الحرب.

(١٠٠) الديوان: ص ٤٤ـ٤٥.

(١٠١) عِذار اللِّجام: ما تدلى منه على وجه الفرس.

(١٠٢) البَزّ: السلاح. والكَهام: من الرجال الثقيل المسنّ الذي لا غناء عنده.

(١٠٣) الديوان: ص ٣٣ـ٣٤.

(١٠٤) المُناغاة: المغازلة والمكالمة. وأراد أن القمر داناه بضوئه فلم يره لضعف بصره، فأحل السمع محل البصر، فظن القمر يحدثه، وعجز عن كلا الأمرين.

(١٠٥) البَراجم: جمع البُرْجُمَة، وهي المفصل الظاهر أو الباطن من الأصابع. ولعله أراد أنه لم يعد يستطيع أن ينهض مودعا من ينزل به من الناس.

(١٠٦) المعمَّرون والوصايا: ص ٥٣.

(١٠٧) المصدر نفسه: ص ٩٩، وورد فيه أن الحارث بن التوأم عاش دهرا في الجاهلية ثم أدرك الإسلام، وهو لا يعقل. ووردت الأبيات مع بعض الاختلاف في الرواية والاكتفاء بنسبتها إلى رجل من يشكر، في الاختيارين: ص ١٣٨.

(١٠٨) يُشاف: يُزيَّن، ويُصنع، ويُجْلَى. والمُقْرَنْشِع: المنتصب النشيط. واستزْمَرَ: تصاغر وتقلَّص.

(١٠٩) الأغاني: ١٠/ ٢٥ـ٢٦.

(١١٠) الدَّريئة: الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها. والفُوقَة: مكان الوتر من السهم.

(١١١) المِنْصَف: الوسط.

(١١٢) الخَرَب: ذكر الحُبارى، وهو طائر. والخَصِر: البارد، ولا معنى لها هنا، وفي الحاشية من ص ٢٦ ذكر المحقق أنها ربما كانت «هَصِر» من قولهم: ليث هصور.

(١١٣) المِرَّة: قوة الخَلْقِ وشدته، وجمعها مِرَر.

(١١٤) انظر شعره في المعمَّرين والوصايا: ص ٣٠.

(١١٥) انظر شعره في المصدر نفسه: ص ٦٥.

(١١٦) طبقات فحول الشعراء: ١/ ٣٤، وورد البيتان الأول والثاني في معجم الشعراء: ص ٢٣، وجاء فيه أن المستوْغر اسمه عمرو بن ربيعة من تميم، وهو أحد المعمَّرين، ومات في صدر الإسلام.

(١١٧) ندايا: أراد: نداء فقلب الهمزة ياء.

(١١٨) العظايا: جمع عظاية، وهي السَّحْليّة، وأراد أن بني بنيه يفعلون به فعل الهرّ في احتراش العظاء وصيدها، ويأتيها من هنا وهنا، ويمسكها مرة ويرسلها أخرى.

(١١٩) الذِّيفان: السم الناقع القاتل. ملايا: ملاءً.

(١٢٠) ذيل الأمالي والنوادر: ص ٢١٥.

(١٢١) المعمَّرون والوصايا: ص ٩٤، والأغاني: ١٠/ ٢٥.

(١٢٢) شرح القصائد العشر: ص ١٩٧.

(١٢٣) الديوان: ص ٣٥.

(١٢٤) المعاني الكبير: ٣/ ١٢١٣، والمعمَّرون والوصايا: ص ٥٣، مع بعض الاختلاف في رواية البيتين.

(١٢٥) مُعْتَنِز: يقال: اعتنز الرجل، إذا وقف ناحية. وقيل: المُعْتَنِز هو المتوكئ على عَنَزَة، وهي العكّازة.

(١٢٦) المعمَّرون والوصايا: ص ٣٤، والأغاني: ١٩/ ١٥ وأمالي المرتضى: ١/ ٢٤٠.

(١٢٧) الحِدَج: مركب للنساء كالمحفّة، والحِداجة، لغة فيه.

(١٢٨) طبقات فحول الشعراء: ١/ ٣٨، والمعمَّرون والوصايا: ص ٣٣.

(١٢٩) الشيخ البَجَال: أراد: شيخا بَجَالاً، والبَجَال والبَجَل: السيد له هيئة وسنّ.

ويُهادَى: يُهدَى، أي يحفّون به ويسندونه حتى يثوب إلى مثواه.

(١٣٠) الديوان: ص ١٧١.

(١٣١) المؤتلف والمختلف: ص ٢١٠ ــ ٢١١، وورد فيه أن الشاعر جاهلي أدرك الإسلام.

(١٣٢) المفضليات: ص ٨٣٨ـ٨٣٩.

(١٣٣) استروَحَ: تشمَّم. القُتار: ريح الشواء.

(١٣٤) أفعل فيه اليَسار: أي أياسر فيه ولا أعاسر.

(١٣٥) الأصمعيات: ص ٦٤.

(١٣٦) الديوان: ص ٥٨ـ٦٤.

(١٣٧) نهاية الأرب: ٦/ ٧٤.

المصادر والمراجع

- الاختياران: للأخفش الأصغر (ت ٣١٥هـ)، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ط. دمشق ١٩٧٤م.
- أساس البلاغة: للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ط. بيروت ١٩٦٠م.
- الاشتقاق: لابن دريد (ت ٣٢١هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، ط. القاهرة، ١٩٥٨م.
- الأصمعيات: للأصمعي (ت ٢١٦هـ)، تحقيق محمد أحمد شاكر، عبد السلام هارون، ط. مصر ١٩٦٧م.
- الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، من ١ـ١٣، ط. دار الكتب المصرية من ١٩٢٧م حتى ١٩٥٠م. ومن ١٧ ــ ٢٤، ط الهيئة العامة للكتاب من ١٩٧٠م حتى ١٩٧٤م.

- الأمالي: لأبي علي القالي (ت ٣٥٦هـ)، ط. دار الكتب المصرية ١٩٢٦م.
- أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد): للشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. بيروت ١٩٦٧م.
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك): للطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. القاهرة ١٩٦٠م.
- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم): لابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، ط. مصر، بلا تاريخ.
- الحماسة: لأبي تمام، شرح المرزوقي (ت ٤٢١)، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط. القاهرة ١٩٥١م.
- الحماسة: لأبي تمام، شرح التبريزي (ت ٥٠٢هـ)، ط. بولاق ١٢٩٦هـ.
- خزانة الأدب: للبغدادي، أربعة أجزاء، تحقيق عبدا لسلام هارون، ط. القاهرة ١٩٦٧م.
- ديوان الأعشى الكبير: تحقيق محمد محمد حسين، ط. القاهرة ١٩٦٠م.
- ديوان أوس بن حجر: تحقيق محمد يوسف نجم، ط. بيروت ١٩٦٠م.
- ديوان بشر بن أبي خازم: تحقيق عزة حسن، ط دمشق ١٩٧٢م.
- ديوان تميم بن أبي بن مقبل: تحقيق عزة حسن، ط. دمشق ١٩٦٢م.
- ديوان حاتم الطائي: ط بيروت ١٩٦٣م.
- ديوان حسان بن ثابت: تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، ط. مصر ١٩٢٩م.
- ديوان ذي الإصبع العدواني: تحقيق العدواني والديلمي، ط. الموصل ١٩٧٣م.
- ديوان زهير بن أبي سلمى: شرح ثعلب (ت٢٩١هـ)، ط. القاهرة ١٩٦٤م.
- ديوان سلامة بن جندل: تحقيق فخر الدين قباوة، ط. حلب ١٩٦٨م.
- ديوان عبيد بن الأبرص: تحقيق د. حسين نصار، ط. مصر ١٩٥٧م.
- ديوان عدي بن زيد العبادي: تحقيق محمد جبار المعيبد، ط. بغداد ١٩٦٥م.
- ديوان عروة بن الورد: شرح ابن السكّيت (ت ٢٤٤هـ)، تحقيق عبد المعين الملّوحي، ط. دمشق ١٩٦٦م.
- ديوان علقمة الفحل: شرح الأعلم الشنتمري (ت ٤٧٦هـ)، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب، ط. حلب ١٩٦٩م.

- ديوان عمرو بن قميئة: د. حسن كامل الصيرفي، ط. معهد المخطوطات العربية ١٩٦٥م.
- ديوان قيس بن الخطيم: تحقيق د. ناصر الدين الأسد، ط. القاهرة ١٩٦٢م.
- ديوان لبيد بن ربيعة: تحقيق د. إحسان عباس، ط. الكويت ١٩٦٢م.
- ديوان النابغة الذبياني: تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ط. مصر ١٩٨٥م.
- ذيل الأمالي والنوادر لأبي علي القالي، دار الكتب المصرية ١٩٢٦م.
- سمط اللآلي في شرح أمالي القالي: للبكري (ت ٤٨٧هـ)، تحقيق عبد العزيز الميمني، ط. القاهرة ١٩٣٦م.
- السيرة النبوية: لابن هشام (ت ٢١٨هـ)، تحقيق السقا والأبياري والشلبي، ط. مصر ١٩٥٥م.
- شرح أشعار الهذليين: صنعة السكري (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط. القاهرة، بلا تاريخ.
- شرح القصائد العشر: للتبريزي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، حلب ١٩٧٣م.
- الشعر والشعراء: لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط. القاهرة ١٩٦٦م.
- طبقات فحول الشعراء: لابن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ)، تحقيق محمود محمد شاكر، ط القاهرة ١٩٧٤م.
- الطرائف الأدبية: اختيار وتحقيق عبد العزيز الميمني، ط. القاهرة ١٩٤٧م.
- القاموس المحيط: للفيروز آبادي (ت ٨١٦هـ)، ط. مصر ١٩٥٢م.
- قصائد جاهلية نادرة: مختارة من مخطوط «منتهى الطلب من أشعار العرب» لابن مبارك، تحقيق د. يحيى الجبوري، ط. بيروت ١٩٨٢م.
- لسان العرب: لابن منظور (ت ٧١١هـ)، ط. بولاق ١٣٠٠هـ.
- المؤتلف والمختلف: للآمدي (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط. القاهرة ١٩٦١م.
- مجالس ثعلب: لأبي العباس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، ط. مصر ١٩٤٨م.
- المعاني الكبير في أبيات المعاني: لابن قتيبة، ط. حيدر آباد الدكن، الهند ١٩٤٩م.
- معجم البلدان: لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، ط. بيروت ١٩٥٥م.

- معجم الشعراء : للمرزباني (ت ٣٨٤هـ) ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط . مصر ١٩٦٠م .
- المعمَّرون والوصايا : للسجستاني (ت ٢٥٠هـ) ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ط . مصر ١٩٦١م .
- المفضليات : للمفضل الضبي (ت ١٧٨هـ) ، شرح الأنباري (ت ٣٠٤هـ) ، ط . بيروت ١٩٢٠م .
- نهاية الأرب في فنون الأدب : للنويري (ت ٧٣٣هـ) ، ط . دار الكتب المصرية ١٩٢٣م .
- النوادر في اللغة : لأبي زيد الأنصاري (ت ٢١٥هـ) ، ط . بيروت ١٩٦٧م .